# المبتكر الغرير في مسائل
# من التدبر والتفسير للقرآن المجيد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله القائل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾(١).

وقائل: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾(٢).

وقائل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾(٣) الآية.

وقائل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾﴾(٤) الآية.

وأصلي وأسلم على عبده المصطفى ونبيه المجتبى القائل فيما أخرجه الشيخان (خ ٥٠٥٤) (م١١٥٩) من طريق محمد بن عبدالرحمن مولى بني زهرة، عن أبي سلمة، عن عبدالله ابن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**اقرأ القرآن في شهر**»، قلت: إني أجد قوة حتى.. قال: «**فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك**». وهذا لفظ البخاري.

وفي «صحيح البخاري» (٥٠٥٢) من طريق مغيرة، عن مجاهد، عن عبدالله

---

(١) سورة النساء، الآية (٨٢).

(٢) سورة المؤمنون، الآية (٦٨).

(٣) سورة ص، الآية (٢٩).

(٤) سورة محمد، الآية (٢٤).

بن عمرو رضي الله عنهما الحديثَ، وفيه قال ﷺ: «**واقرأ في كل سبع ليال مرة ...**».

قال أبو عبدالله البخاري بعد هذا الحديث: «وقال بعضهم في ثلاث، وفي خمس، وأكثرهم على سبع».

والحكمة في هذا النهي حتى يتدبر القارئ القرآن ويفهم معانيه، كما في «جامع الترمذي» (٢٩٤٩)، والنسائي في «الكبير» (٨٠١٣)، وابن ماجه (١٣٤٧) من طريق شعبة، عن قتادة، عن يزيد بن عبدالله بن الشخير، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «**لم يفقه من قرأ القرآن في أقل من ثلاث**».

قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح».

وأخرجه أيضًا أبو داود (١٣٩٠ - ١٣٩٤) من طريق همام وسعيد عن قتادة به.

ولهذا بوب البخاري فقال: «باب الترتيل في القراءة، وقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾﴾[1]، وقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾[2]، وما يكره أن يهذ كهذ الشعر ﴿فِيهَا يُفْرَقُ﴾[3] يفصل، قال ابن عباس: ﴿فَرَقْنَٰهُ﴾:

(١) سورة المزمل، الآية (٤).

(٢) سورة الإسراء، الآية (١٠٦).

(٣) سورة الدخان، الآية (٤).

فصلناه».

ثم روى (٥٠٤٣) من طريق واصل، عن أبي وائل، عن عبدالله قال: «غدونا على عبدالله؛ فقال رجل: قرأت المفصل البارحة، فقال: هذًّا كهذ الشعر إنا قد سمعنا القرآن...».

وأخرج البيهقي في «الشعب» (١٨٨٢) عن أيوب، عن أبي جمرة، قال قلت لابن عباس: «إني سريع القرآن إني أقرأ القرآن في ثلاث قال: لئن أقرأ البقرة في ليلة أتدبرها، وأرتلها أحب إلي أن أقرأه كما تقرأ».

وفي رواية أخرى في «الشعب» (١٩٧١): «إِنِّي أُهَذْرِمُ الْقُرْآنَ هَذْرَمَةً...».

وأخرج ابن المبارك في «الزهد» (١٢٨٥)، وعبدالرزاق (٤١٨٨)، وأبو عبيد في «فضائل القرآن» (٢٠٢)، واللفظ له، عن عبيد المكتب، قال: قلت لمجاهد: رجلٌ قرأ البقرة وآل عمران، ورجل قرأ البقرة، قيامهما واحد، وركوعهما واحد، وسجودهما واحد، وجلوسهما واحد، أيهما أفضل؟ فقال: «الذي قرأ البقرة». ثم قرأ: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.

**قلت:** وهذه صفة قراءة رسول الله ﷺ ومنه أخذ ذلك الصحابة رضي الله عنهم، ومن أتى من بعدهم كما أخرجه مسلم في «صحيحه» (٧٧٢) من طريق صلة بن زفر، عن حذيفة، قال: صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فافتتح البقرة،

فقلت: يركع عند المائة ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة فمضى. فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها يقرأ مترسلًا، إذا مر بآية فيها تسبيح سبَّح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ . الحديث.

وبهذا أمره ربهُ ﷻ فقال: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾.

قال ابن جرير الطبري (١٧/ ٥٧٥): «لتقرأه على الناس على تُؤَدة، فترتله وتبينه، ولا تعجل في تلاوته، فلا يفهم عنك».

ويؤكد هذا المعنى قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴿١٠٦﴾﴾: أي شيئًا فشيئًا، لأنه لو نزل مرة واحدة لصعب فهمه عليهم.

وكما أُمر بترتيله عليهم أمر بتفسيره لهم قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1].

«فالدين الذي اجتمع عليه المسلمون اجتماعًا ظاهرًا معلومًا، هو منقول عن نبيهم نقلًا متواترًا، نقلوا القرآن، ونقلوا سنَّته، وسنَّته مفسرة للقرآن مبينةٍ له، كما قال تعالى له: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

فبيَّن ما أنزل الله لفظه ومعناه، فصار معاني القرآن التي اتفق عليها

---

(١) سورة النحل، الآية (٤٤).

المسلمون اتفاقًا ظاهرًا مما توارثته الأمة عن نبيها، كما توارثت عنه ألفاظ القرآن فلم يكن -ولله الحمد- فيما اتفقت عليه الأمة شيء محرف مبدل من المعاني، فكيف بألفاظ تلك المعاني؟

فإن نقلها والاتفاق عليها أظهر منه في الألفاظ، فكان الدين الظاهر للمسلمين الذي اتفقوا عليه مما نقلوه عن نبيهم، لفظه ومعناه فلم يكن فيه تحريف ولا تبديل، لا للفظ ولا للمعنى، بخلاف التوراة والإنجيل فإن من ألفاظها ما بَدَّلَ معانيه وأحكامه اليهودُ والنصارى أو مجموعهما تبديلًا ظاهرًا مشهورًا في عامتهم»(١).

**قلت:** وهذا ظاهر ومع ذلك فقد اعترض بعض أهل العلم، فقال: إن الأحاديث التي نقلت في التفسير قليلة.

**قلت:** والجواب عن ذلك: أن الآية المتقدمة نص في المسألة فلا شك أن الرسول ﷺ بيَّن للأمة معاني الآيات وفسرها لهم فمثلًا الإسلام والإيمان والإحسان وهي كثيرة الدوران في القران الكريم بيَّن المقصود منها كما في حديث جبريل «قال: يا محمد أخبرني عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: «**الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا**». قال:

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٣/ ١٧).

صدقت، قال: فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره**»، قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان، قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»(١).

وهكذا الصلاة فبين ﷺ شروطها وفرائضها وسننها وكيفية أقامتها.

ومثلها الزكاة والصيام والحج وغير ذلك، فسنته وسيرته مفسرة لهذا القران، ولما سألت عائشة رضي الله عنها عن خلقه فقالت: «كان خلقه القرآن»(٢).

ولذا قال ابن مسعود فيما رواه ابن جرير الطبري (١/ ٨٠) من طريق الأعمش، عن شَقيق، عن ابن مسعود ت، قال: «كانَ الرجل مِنَّا إذا تعلَّم عَشْر آياتٍ لم يجاوزهُنّ حتى يعرف معانيهُنَّ، والعملَ بهنَّ»، وإسناده جيد.

وأخرج أحمد (٢٢٩٧١) من طريق عطاء بن السائب، عن أبي عبدالرحمن، قال: حدثنا من كان يقرئنا من أصحاب النبي ﷺ أنهم كانوا يقترئون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يعلموا ما في هذه من العلم والعمل قالوا فعلمنا العلم والعمل»، وإسناده جيد.

ولذا قال أبو حامد الغزالي: «والتفصيل في مقدار القراءة أنه إن كان من

---

(١) «صحيح مسلم» (٨).

(٢) «مسند أحمد» (٢٥٣٠٢).

العابدين السالكين طريق العمل فلا ينبغي أن ينقص عن ختمتين في الأسبوع. وإن كان من السالكين بأعمال القلب وضروب الفكر أو من المشتغلين بنشر العلم فلا بأس أن يقتصر في الأسبوع على مرة. وإن كان نافذ الفكر في معاني القرآن فقد يكتفي في الشهر بمرة لكثرة حاجته إلى كثرة الترديد والتأمل»[١].

وقال أبو العباس ابن تيمية في «مقدمة التفسير» (٢): «وحاجة الأمة ماسَّة إلى فهم القرآن».

وقال محمد بن علي الموزعي المعروف بابن الخطيب «تيسير البيان» (١/ ١١): «واعلموا أن الله تعالى أوجب على نبيه بيان ما أنزل عليه، وجعل بيان ذلك إليه وخصه بهذا المنصب الشريف ... قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾[٢]، ثم اعلموا أن بيانه لأمته من ثلاثة أوجه فوجهان متفق عليهما وفي الثالث اختلاف عندهم.

**الأول**: ما نص الله ﷻ عليه وأحكم فرضه وبينه بأوضح بيان ثم بينه النبي ﷺ إما بقول أو فعل كما بينه الله.

**الثاني**: ما نص الله تعالى عليه جملة وأحكم فرضه وجعل إلى نبيه ﷺ بيان تلك الجملة فبين مواقيتها وأحوالها وفرائضها وآدابها ومقدماتها ولواحقها

(١) «إحياء علوم الدين» (٢/ ٣٥).

(٢) سورة النحل، الآية (٤٤).

وبين عمن تجب وعمن تسقط وكيف يأتي بها العبد وغير ذلك من الأحوال.

**الثالث**: ما سنَّ رسول الله ﷺ مما لم يرد فيه كتاب، فهذا المختلف فيه فمنهم من قال جعل الله له ذلك لما خصه من وجوب طاعته وتوفيقه لما يرضاه وعصمته عن الخطأ أن يسن فيما لم يرد فيه كتاب وإليه ميل الإمام الشافعي، ومنهم من قال لم يسن سنة قط لا ولها أصل في كتاب الله».

ولا يخفى أهمية تدبر القران ومعرفة تفسيره ومعانيه في اعتقاد ما دلَّ عليه والعمل بأحكامه وفي زيادة إيمان العبد وقوة يقينه والتحقق بظهور إعجازه له.

ولذا كم من شخصٍ لا يعرف لغة القران لكونه أعجمي عندما قرأ معاني القران بلغتِهِ قادهُ هذا إلى الإسلام والإيمان.

وأخرج ابن جرير في «تفسيره» (١/ ٨١) من طريق أبي معاوية، عن الأعمش، عن شقيق، قال: استعمل عليٌّ ابنَ عباسٍ على الحج، قال: «فخطب الناسَ خطبة لو سمعها الترك والرُّوم لأسلموا، ثم قرأ عليهم سُورة النور، فجعل يفسرها».

وجاء عند الحاكم من نفس الطريق (٦٢٩٠) بلفظ: «خطب ابن عباس وهو على الموسم فافتتح سورة النور فجعل يقرأ ويفسر فجعلت أقول: ما رأيت ولا سمعت كلام رجل مثله لو سمعته فارس والروم لأسلمت».

وأخرجه أيضًا أبو عبيد في «فضائل القرآن» (٢٥٠)، وابن جرير (١/ ٨١) واللفظ له، من طريق الأعمش، عن أبي وائل شقيق بن سلمة، قال: «قرأ ابنُ عباسٍ سورة البقرة، فجعل يُفسِّرها، فقال رجل: لو سمعتْ هذا الديلمُ لأسلمتْ»[١].

ولذا قال ابن جرير فيما رواه أبو بكر محمد بن مجاهد، قال: سمعت أبا جعفر يقول: «إني أعجب ممن قرأ القرآن، ولم يعلم تأويله كيف يلتذ بقراءته؟»[٢].

۞۞۞

---

(١) صححه ابن حجر في الفتح (٧/ ١٠٠)، وينظر: المعرفة والتاريخ (١/ ٤٩٥).

(٢) معجم الأدباء (٢/ ٢٤٥٣).

## فصل
## في حكم تدبر القرآن العظيم

تبين مما تقدم وما سوف يأتي أن تدبر كتاب الله تعالى فرض على كل أحد من حيث الجملة، وأما من حيث التفصيل أي جميع القرآن فهو فرض كفاية على الأمة.

والدليل على ذلك غير ما تقدم أن الله تعالى ذم من لم يتدبر كتابه وأنَّ المتصفين بذلك هم الكفار والمنافقون.

قال الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله تعالى: «باب وجوب تعلم القرآن وتفهمه واستماعه والتغليظ على من ترك ذلك».

وقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[1].

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾[2].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[3] الآية.

---

(١) سورة الأنعام، الآية (٢٥).

(٢) سورة الأنفال، الآية (٢٢).

(٣) سورة طه، الآية (١٢٤).

عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «**مَثلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضًا فكان منها نقيَّةٌ قبلت الماء؛ فأنبتت الكلأ والعُشْب الكثير، وكانت منها أجادبُ أمسكت الماء؛ فنفع الله بها النَّاس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفةً أخرى إنما هي قيعانٌ لا تُمسك ماءً ولا تنبت كلأً؛ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه، ما بعثني الله به فعلم وعلَّم ومثلُ من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به**». أخرجاه[(١)].

وعن ابن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «**ارحموا تُرحموا، واغْفروا يَغفر الله لكم، ويلٌ لأقْماع القول ويلٌ للمُصِرِّين الذين يُصِرُّون على ما فعلُوا وهم يَعلمون**». رواه أحمد[(٢)].

(١) البخاري (٧٩)، مسلم (٢٢٨٢).

(٢) مسند أحمد (٦٣٦٤).

## باب الخوف على من لم يفهم القرآن أن يكون من المنافقين

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ ﴾[(١)] الآية.

وقوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾[(٢)] الآية.

عن أسماء أن رسول الله ﷺ قال: «**إنكم تُفْتنونَ في قُبوركم مِثل أو قَريبًا من فِتنة الدَّجَّال يُؤتى أحدكم فيقال: ما عِلمُك بِهذا الرَّجُل؟ فأمَّا المؤمن أو الموقنُ لا أدرِي أي ذلك**». قالت أسماء فيقولُ: **هو مُحمَّدٌ رسول الله جاءنا بالبينات والهدى فأجبنا وآمنا واتَّبعنا. فيقال: نم صالحًا قد عَلِمنَا إن كُنت لمؤمِنًا، وأما المنافِقُ أو المُرتَابُ فيقول: لا أدرِي، سمعت الناس يقولون شيئًا فقُلته**». أخرجاه[(٣)].

وفي حديث البراء في «الصحيح»: «**أن المؤمن يَقول: هو رسول الله، فيقولان: قرأتُ كِتاب الله فآمنت به وصدَّقْتُ**»[(٤)]» [(١)]. اهـ.

---

(١) سورة محمد، الآية (١٦).

(٢) سورة الأعراف، الآية (١٧٩).

(٣) البخاري (٨٦)، مسلم (٥٨٤).

(٤) «مسند أحمد» (١٨٥٣٤)، «سنن أبي داود» (٤٧٥٣)، «التوحيد» لابن خزيمة

**قلت**: الأدلة التي أوردها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى ظاهرة على ما بوب عليه، ولذا يجب على كل مكلف أقل ما يتدبر سورة الفاتحة، وهذا ما عنيته بقولي أنه فرض على كل مكلف في الجملة.

لذا قال أبو محمد ابن حزم: «تدبر القرآن فرض»[٢].

وقال أبو عبدالله القرطبي في «الجامع» (٥/ ٢٩٠): دل قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾[٣]، على وجوب التدبر في القرآن».

---

(١/ ٢٧٥)، و«الإيمان» لابن مندة (١٠٦٤)، «المستدرك» (١٠٧)، كلهم من حديث الأعمش، عن منهال بن عمرو، عن زاذان، عن البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

قال البيهقي في «الشعب» (٣٩٥): هذا حديث صحيح الإسناد.

وقال ابن مندة في «الإيمان» (٢/ ٩٦٥): «هذا إسناد متصل مشهور، رواه جماعة، عن البراء، وكذلك رواه عِدَّةٌ، عن الأعمش، وعن المنهال بن عمرو، والمنهال أخرج عنه البخاري ما تفرد به، وزاذان أخرج عنه مسلم، وهو ثابت على رسم الجماعة. وروي هذا الحديث عن جابر، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وأنس بن مالك، وعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ».

وأصل حديث البراء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في «صحيح البخاري» (١٣٦٩)، ومسلم (٢٨٧١) من طريق شعبة، عن علقمة ابن مرثد، عن سعد بن عبيدة، عن البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(١) «فضائل القرآن» ضمن مجموع مؤلفات الشيخ محمد بن عبدالوهاب (١/ ٧٧٣).

(٢) رسائله (٣/ ١٩٨).

(٣) سورة محمد، الآية (٢٤).

وقال الشنقيطي على هذه الآية في «الأضواء» (٧/ ٤٥٨): «وهذه الآيات المذكورة تدل على أن تدبر القرآن وتفهمه وتعلمه والعمل به، أمر لا بد منه للمسلمين»[١].

ومن الأدلة على ذلك غير ما تقدم أن قراءتها فرض في كل صلاة كما في «الصحيحين» (خ٧٢٣) (م٣٩٤) من حديث الزهري، عن محمود بن الربيع، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب**».

وفي حديث العلاء بن عبدالرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من صلى صلاة لم يقرأ فيها بأم القرآن فهي خداج ثلاثًا غير تمام** ..»[٢].

وهذه الأحاديث كما دلت على وجوب قراءتها ففيها أيضًا دليل على وجوب تدبرها، لأن القران إنما أنزل ليتدبر ويعلم فيعمل به.

والقراءة بلا تدبر ولا فهم للمعنى لا يحصل منها المقصود والمراد.

قال الإمام بن تيمية: «وذلك أن الله تعالى قال: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ

(١) انظر بيان أن ترك التدبر من هجر القرآن: «الفوائد» لابن القيم (٨٢)، «تفسير ابن كثير» (٦/ ١٠٨).

(٢) أخرجه مسلم (٣٩٥).

لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ﴾[(١)]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ﴾[(٢)]، وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن، وكذلك قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢﴾[(٣)].

وعقل الكلام متضمن لفهمه.

ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه فالقرآن أولى بذلك. وأيضًا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم»[(٤)].

فلابد على المصلي أن يعقل ويفهم معنى الله وأنه هو المألُوه أي المعبود.

ومعنى رب العالمين أي الذي خلقهم من العدم ورباهم بالنعم، وأنه هو الرحمن الرحيم الذين وسعت رحمته كل شيء.

وهو مالك يوم الدين وهو يوم الحساب للخلق أجمعين على ما عملوه إن كان خيرًا فخير وإن كان شرًا فشرٌ على من فعله، وأنه هو المختص بالعبادة

---

(١) سورة ص، الآية (٢٩).

(٢) سورة المؤمنون، الآية (٦٨).

(٣) سورة يوسف، الآية (٢).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٣/ ٣٣٢).

والاستعانة وحده لا شريك له، وأن عليه أن يسأل ربه الهداية إلى صراطه المستقيم الذي تقدم ذكره، وهو ما كان عليه المنعم عليهم من النبيين وعلى رأسهم نبينا محمد ﷺ وسائر عباد الله الصالحين المباين لصراط المغضوب عليهم من اليهود والنصارى وسائر الكافرين.

❁❁❁

## فصل
## في كيفية القراءة في كتب التفسير

**القراء في تفسير القرآن يختلفون كل بحسب مقصده:**

١- فإما أن يقصد قراءة تفسير القران كاملًا

٢- وإما أن يقرأ تفسير بعض الآيات والسور.

٣- وإما يريد معرفة لفظة وردت، أو حكم من الاحكام، أو موضوع من الموضوعات التي ذكرت في القرآن كمعرفة قصة من القصص الواردة في الكتاب العزيز كقصة إبراهيم ويوسف عليهما السلام، وغيرهم.

**أما الأولى**: فهي الطريقة المثلى لفهم الكتاب العزيز، وذلك بقراءة تفسيره من أوله إلى آخره، لأن القران بعضه يفسر بعضًا فما أُجمل في مكان بين في مكان آخر، وما اختصر في موضع بسط في موضع آخر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾[1].

فالحالة الأولى: جمعه في صدره.

والثانية: تلاوته.

والثالثة: تفسيره وإيضاح معناه.

---

(١) سورة القيامة، الآيات (١٧ - ١٩).

قال ابن عباس وعطية العوفي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾: «تبيين حلاله وحرامه». وكذا قال قتادة (١).

ولذا ألف بعض أهل العلم تفسيرًا واعتمد فيه على تفسير الآيات بعضها للبعض الآخر، وسماه: «إيضاح القرآن بالقرآن».

**وأما الثانية:** وهي عندما يراد معرفة تفسير آية بعينها أو آيات أو سورة من السور ولاشك في فائدة ذلك، ولكنها ليست مثل الأولى أو الحالة التالية.

**الحالة الثالثة:** وهي أخص من الأولى وأعم من الثانية فمن أراد معرف معنى ما ورد في كتاب الله فالأولى به أن يتتبعه في جميع القرآن حتى يتضح له جميع معانيهِ ومراد الله فيهِ.

ويتضح هذا أكثر عندما يريد مثلًا معرفة مقصود الله ﷻ من إقامة الصلاة وكيفية ذلك، ومن المعلوم أنه لم يأتِ في القران الأمر بأدائها وإنما الأمر بإقامتها فسوف تجد:

**أولًا:** الأمر بأدائها في قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾ (٢).

**ثانيًا:** أداؤها في وقتها كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا

---

(١) انظر: «تفسير ابن كثير» (٨ / ٢٧٩).

(٢) سورة طه، الآية (٣٢).

مَّوۡقُوتٗا ﴿١٠٣﴾﴾[(١)]، ويسبق ذلك التطهر لها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٦﴾﴾[(٢)].

واستقبال القبلة في قوله تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ﴾[(٣)].

وأخذ الزينة لها في قوله تعالى: ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ﴾[(٤)].

**ثالثًا:** ذم الله ﷻ المنافقين الذين يستعجلون في صلاتهم، ولا يطمئنون فيها ولا يفعلونها إلا مراءاة للناس قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا

---

(١) سورة النساء، الآية (١٠٣).

(٢) سورة المائدة، الآية (٧).

(٣) سورة البقرة، الآية (١٤٤).

(٤) سورة الأعراف، الآية (٣١).

﴿١٤٢﴾ [1].

وهذا فيه دليل على أن من إقامتها الإتيان بأركانها وواجباتها وتكميل ذلك بمستحباتها.

ولذا قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾﴾ [2].

قال أبو العالية: لا يصلونها لمواقيتها ولا يتمون ركوعها ولا سجودها[3].

وقال أبو العالية أيضًا: «هو الذي إذا سجد قال برأسه هكذا وهكذا ملتفتًا»[4].

وقال القرطبي في الجامع (٢٠/ ١٩٤): «ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [5]».

وقال القاسم بن مخيمرة وعبدالله بن مسعود: هي إضاعة أوقاتها وعدم

---

(١) سورة النساء، الآية (١٤٢).

(٢) سورة الماعون، الآيتان (٤-٥).

(٣) الكشف والبيان (٣٠/ ٣٣٦).

(٤) الكشف والبيان (٣٠/ ٣٣٦)، وجاء في غيره كالجامع للقرطبي (٢٠/ ٢١١)، والبحر المحيط (٨/ ٥١٨)، منسوبًا لإبراهيم النخعي.

(٥) سورة مريم، الآية (٤٩).

القيام بحقوقها.

وهو الصحيح وأنها إذا صليت مخلًا بها لا تصح ولا تجزئ، لقوله ﷺ للرجل الذي صلى وجاء فسلم عليه: «**ارجع فصل فإنك لم تصل** -ثلاث مرات-»[(١)].

**رابعًا**: وهذا يؤدي إلى الخشوع فيها، ولذا مدح الله ﷻ المؤمنين المتصفين بذلك كما قال تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾**﴾[(٢)] الآية.

وهذا من القنوت الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾[(٣)].

قال الإمام ابن تيمية: «وقد تنازع الناس، هل الأفضل طول القيام؟ أم كثرة الركوع والسجود؟ أو كلاهما سواء؟ على ثلاثة أقوال: أصحها أن كليهما سواء، فإن القيام اختص بالقراءة، وهي أفضل من الذكر والدعاء، والسجود نفسه أفضل من القيام، فينبغي أنه إذا طول القيام أن يطيل الركوع والسجود،

---

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١١ / ١١٢).

(٢) سورة المؤمنون، الآيتان (١ - ٢).

(٣) سورة الزمر، الآية (٩).

وهذا هو طول القنوت الذي أجاب به النبي ﷺ لما قيل له: أي الصلاة أفضل؟ فقال: «**طول القنوت**»، فإن القنوت هو إدامة العبادة، سواء كان في حال القيام، أو الركوع أو السجود، كما قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا ﴾؛ فسماه قانتا في حال سجوده، كما سماه قانتا في حال قيامه»(١).

**خامسًا:** والأمر بها جماعة كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ ﴾(٢) الآية.

وهذا في حال الحرب فكيف في حال السلم، ولذا ذكر الله ﷻ بعد ذلك الأمر بإقامة الصلاة، فقال: ﴿فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾(٣).

**سادسًا:** الإخلاص فيها وترك مراءاة الخلق كما تقدم في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ الآية.

وكما في سورة الماعون: ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾.

**سابعًا:** مع المداومة على ذلك كله والمحافظة عليه قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ

---

(١) «الفتاوى الكبرى»: (٢ / ١٢٠)، وينظر: «مجموع الفتاوى»: (٢٣/ ٦٩).

(٢) سورة النساء، الآية (١٠٢).

(٣) سورة النساء، الآية (١٠٣).

صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾[(١)].

قال صاحب «الكشاف» (٤/ ٦١٢): «فإن قلت: كيف قال: ﴿عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾ ثم على صلاتهم يحافظون؟.

قلت: معنى دوامهم عليها أن يواظبوا على أدائها لا يخلون بها، ولا يشتغلون عنها بشيء من الشواغل، كما روي عن النبي ﷺ: «**أفضل العمل أدومه وإن قلّ**». وقول عائشة: «كان عمله ديمة».

ومحافظتهم عليها أن يراعوا إسباغ الوضوء لها ومواقيتها ويقيموا أركانها ويكملوها بسنتها وآدابها، ويحفظوها من الإحباط باقتراف المآثم، فالدوام يرجع إلى أنفس الصلوات والمحافظة إلى أحوالها».

وإذا ضممت إلى هذا ما جاء في السنة النبوية من تفصيل شروطها وأركانها وواجباتها وسننها وكيفية أدائها، وصفة ذلك كما جاء وصف الصلاة عن رسول الله ﷺ، تبين لك هذا أكثر.

وأما كتب التفسير التي ينبغي الرجوع إليها لفهم القرآن العظيم فأولاها بالعناية الكتب التي تفسر القرآن بالقرآن والسنة النبوية ثم بما جاء عن الصحابة والتابعين.

قال أبو العباس ابن تيمية: «والتفاسير المأثورة عن النبي ﷺ والصحابة

---

(١) سورة المعارج، الآية (٢٣).

والتابعين مثل: «تفسير محمد بن جرير الطبري»، و«تفسير عبدالرحمن بن إبراهيم المعروف بدحيم»، و«تفسير عبدالرحمن ابن أبي حاتم»، و«تفسير أبي بكر ابن المنذر»، و«تفسير أبي بكر عبدالعزيز»، و«تفسير أبي الشيخ الأصبهاني»، و«تفسير أبي بكر بن مردويه».

وما قبل هؤلاء التفاسير مثل تفسير أحمد بن حنبل وإسحاق بن إبراهيم وبقي بن مخلد وغيرهم.

ومن قبلهم مثل «تفسير عبد بن حميد» و«تفسير سنيد» و«تفسير عبدالرازق»، ووكيع بن الجراح فيها من هذا الباب الموافق لقول المثبتين ما لا يكاد يحصى، وكذلك الكتب المصنَّفة في السنة التي فيها آثار النبي ﷺ والصحابة التابعين»[١].

**قلت**: وهذا متعين لأنه لا يخفى أن عدد من التفسير ينقلون تأويلات أهل الابتداع، وتحرف معاني الآيات، ومن ذلك تأويل آيات الصفات، وغير ذلك.

**ثانيًا**: أن بعض كتب التفسير فيها توسع كبير واستطراد واسع وهذا قد يصد القارئ عن تفهم وتدبر بعض الآيات.

وقد قيل عن بعض كتب التفسير: فيها كل شيء إلا التفسير.

قال أبو حيان في «البحر المحيط» (١/ ٥٤٧): «وهكذا جرت عادتنا: أن

---

(١) «درء تعارض العقل والنقل» (٢ / ٢١).

كل قاعدة في علم من العلوم يرجع في تقريرها إلى ذلك العلم، ونأخذها في علم التفسير مسلمة من ذلك العلم، ولا نطول بذكر ذلك في علم التفسير، فنخرج عن طريقة التفسير، كما فعله أبو عبدالله محمد ابن عمر الرازي، المعروف بابن خطيب الري، فإنه جمع في كتابه في التفسير أشياء كثيرة طويلة، لا حاجة بها في علم التفسير.

ولذلك حكي عن بعض المتطرفين من العلماء أنه قال: فيه كل شيء إلا التفسير، وقد ذكرنا في الخطبة ما يحتاج إليه علم التفسير فمن زاد على ذلك، فهو فضول في هذا العلم، ونظير ما ذكره الرازي وغيره، إن النحوي مثلًا يكون قد شرع في وضع كتاب في النحو، فشرع يتكلم في الألف المنقلبة، فذكر أن الألف في الله، أهي منقلبة من ياء أو واو؟ ثم استطرد من ذلك إلى الكلام في الله تعالى، فيما يجب له ويجوز عليه ويستحيل.

ثم استطرد إلى جواز إرسال الرسل منه تعالى إلى الناس.

ثم استطرد إلى أوصاف الرسول ﷺ، ثم استطرد من ذلك إلى إعجاز ما جاء به القرآن وصدق ما تضمنه، ثم استطرد إلى أن من مضمونه البعث والجزاء بالثواب والعقاب.

ثم المثابون في الجنة لا ينقطع نعيمهم، والمعاقبون في النار لا ينقطع عذابهم

.

فبينا هو في علمه يبحث في الألف المنقلبة، إذا هو يتكلم في الجنة والنار، ومن هذا سبيله في العلم، فهو من التخليط والتخبيط في أقصى الدرجة.

وكان أستاذنا العلامة أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الثقفي، قدَّس الله تربته، يقول ما معناه: متى رأيت الرجل ينتقل من فن إلى فن في البحث أو التصنيف، فاعلم أن ذلك، إما لقصور علمه بذلك الفن، أو لتخليط ذهنه وعدم إدراكه، حيث يظنّ أن المتغايرات متماثلات، وإنما أمعنت الكلام في هذا الفصل لينتفع به من يقف عليه، ولئلا يعتقد أنا لم نطلع على ما أودعه الناس في كتبهم في التفسير، بل إنما تركنا ذلك عمدًا، واقتصرنا على ما يليق بعلم التفسير.

**قلت**: ولذا قد تستفيد من الكتب المختصرة في التفسير وغيره أكثر من الكتب المطولة، وذلك لأنك تقف على معنى الآية مباشرة بلا تطويل فتستفيد معناها أكثر من بعض المطولات التي تشتت القارئ، كما أن الأولى تجنب الكتب المختصرة جدًا والتي تقتصر على معاني الكلمات فقط كـ«تفسير الجلالين».

نعم، لاشك أنه مفيد ولكن فائدته محدودة.

**ثالثًا**: يستحسن أن يراجع أكثر من تفسير خاصة إذا كان من أهل العلم لأن هذا يساعده على تدبر الآيات وفهمها لآن كتب التفسير بعضها يكمل

بعضا خاصة المنقولة عن السلف.

وقد كان الإمام ابن تيمية يرجع إلى كثير من كتب التفسير في المسألة.

قال رحمه الله: «وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة، وما رووه من الحديث ووقفت من ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار أكثر من مائة تفسير»[١].

**قلت**: وخاصة الكتب التي تعتني باستنباط الفوائد والأحكام من الآيات.

**رابعًا**: وإذا جمع إلى هذا تدبره للآيات بنفسه ومحاولة معرفة ما دلت عليه مع ما تقدم فإن هذا مفيد جدًا خاصة إذا تدارسه مع غيره، كما جاء في الحديث الصحيح «.. **وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم** ....» الحديث[٢].

ولا يخفى أن كتب التفسير لا تذكر كل شيء وكتاب الله ﷻ كنز لا ينضب.

ولذا ذكر ابن القيم أن في سورة يوسف ألف فائدة، حيث قال في «الداء والدواء» (١/ ٤٨٧): «وفي هذه القصة من العبر والفوائد والحكَم ما يزيد على ألف فائدة، لعلّنا إن وفّق أن نفردها في مصنّف مستقلّ».

وقد ذكر أهل العلم في التفسير كثير من هذه الفوائد ومما لم يذكر -فيما

(١) «مجموع الفتاوى» (٦/ ٣٩٤).

(٢) مسلم (٢٦٩٩) من طريق الاعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه به.

أعلم- أن في سجود يعقوب بن إسحاق ﷺ، وهو نبي كريم ليوسف ﷺ دليل على علو مكانته خاصة أن هذا السجود هو لابنه فيعقوب هو الوالد والأصل أن التعظيم يكون من الابن للوالد، فلما كان من الوالد للولد فهذا دليل آخر على مكانه هذا الولد، هذا مع سجود باقي إخوته خاصة إذا قيل بنبوتهم(١).

هذا مع ما جرى عليه من الابتلاء العظيم وإذا ضُمَّ هذا مع ما جاء في السنة النبوية وأعني حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي خرجه البخاري (٣٣٧٤) ومسلم (٢٣٧٨) من طريق عبيدالله، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: من أكرم الناس؟، قال: «**أكرمهم أتقاهم**». قالوا يا نبي الله ليس عن هذا نسألك. قال: «**فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله**». فقالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «**فعن معادن العرب تسألوني؟**»، قالوا: نعم. قال: «**فخياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**».

وفي رواية عبدة، عن عبيدالله: أي الناس أكرم.

ووجه الاستدلال من الحديث قوله ﷺ: أن يوسف هو أكرم الناس، وهو مقابل قوله ﷺ جوابًا لسؤالهم عن أكرم الناس، فقال: «**أتقاهم**»، فعندما

(١) وهذا قول ضعيف.

قالوا: ليس عن هذا نسألك، فظن ﷺ أنهم يريدون أن يعين لهم شخصًا، فقال: يوسف.

وهذا كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾(١).

فظاهر هذا النص أن يوسف عليه السلام أفضل الناس، ويخص من هذا أولي العزم بالإجماع.

قال ابن حجر: «وإنما أطلق على يوسف أكرم الناس لكونه رابع نبي في نسق، ولم يقع ذلك لغيره فإنه اجتمع له الشرف في نسبه من وجهين»(٢).

وقال أيضًا في «الفتح» (٨/ ٣٦١): «ومعنى قوله أكرم الناس أي من جهة النسب ولا يلزم من ذلك أن يكون أفضل من غيره مطلقًا».

**قلت:** وهذا فيه نظر، وذلك أن الرسول ﷺ ظن أنهم يسألون عن أفضل الناس، فقال: «**أتقاهم**»، ثم لما قالوا ليس عن هذا نسالك ظن أنهم يريدون التعيين والتسمية. فقال: «**يوسف**»، ثم لما علم أنهم يريدون شرف النسب بين لهم، فقال: «**خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام**».

فجوابه الأول لم يكن عن شرف النسب، والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة الحجرات، الآية (١٣).

(٢) «فتح» الباري (٦/ ٥٢٨).

ومن تدبر القران أيضًا يعلم أن إسماعيل أفضل من إسحاق عليهما السلام.

والدليل على ذلك أن الله تعالى لم يذكر إسماعيل وإسحاق إلا وبدأ بإسماعيل أولًا، كما قال تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾(1).

وقال تعالى: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾(2).

وقال تعالى: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ ۗ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾﴾(3).

وقال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ

---

(١) سورة البقرة، الآية (١٣٣).

(٢) سورة البقرة، الآية (١٣٦).

(٣) سورة البقرة، الآية (١٤٠).

مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾(١).

وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾﴾(٣).

وذلك أن طريقة القرآن لا تقدم الشخص إلا لأمر، إما لكونه الأفضل وإما لكونه أقدم زمنا وهذا في الغالب، ولذا ما ذكر موسى وهارون إلا وقدم موسى عليه السلام، إلا ما جاء في سورة طه، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا۟ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾(٤).

---

(١) سورة آل عمران، الآية (٨٤).

(٢) سورة النساء، الآية (١٦٣).

(٣) سورة إبراهيم، الآية (٣٩).

(٤) سورة طه، الآيات (٦٥-٧٠).

وهذا من أجل تناسق أواخر الآيات، كما في قوله: «ألقى، تسعى، الأعلى، أتى، موسى».

وأما ما أخرج الترمذي في «جامعه» (٣٦٠٥) قال: حدثنا خلاد بن أسلم، حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا الأوزاعي، عن أبي عمار، عن واثلة بن الأسقع اقال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشًا، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**».

قال أبو عيسى: «هذا حديث حسن صحيح».

**قلت**: وأنا أذهب إلى ما ذهب إليه أبو عيسى من صحة هذا الحديث، إلا لفظه: «**إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل**»، فإن هذه الزيادة تفرد بها محمد بن مصعب، وهو منكر الحديث، ولكن يكتب حديثه، وذلك أنه أُتي من سوء حفظه وعدم ضبطه، وكان من أهل الصلاح والخير، وقد جاء هذا الحديث من طرق، وليس فيه هذه اللفظة فأخرجه مسلم (٢٢٧٦) من طريق الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي، عن أبي عمار شداد، أنه سمع واثلة بن الأسقع ا يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**».

ورواه أبو المغيرة، وبشر بن بكر، ومحمد بن بشر التنيسي، ومحمد بن كثير، ويزيد بن يوسف «وهو متروك»، جميعهم عن الأوزاعي عنه به، بهذا اللفظ.

فتبين أن هذه الزيادة منكرة، ولم يتابع عليها محمد بن مصعب.

ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ٤﴾[1].

فيلاحظ أن الله تعالى بعد أن ذكر ذاته المقدسة ابتدأ بجبريل عليه السلام، ثم صالح المؤمنين وهم الصحابة رضي الله عنهم، ثم ذكر بعد ذلك الملائكة عليهم السلام، وتقديم جبريل على غيره يدل على علو مكانته، وأنه أفضل ممن ذكر بعده ويؤيد هذا أن الله عز وجل ذكر صالح المؤمنين بينه وبين الملائكة، ولم يعطف الملائكة على جبريل، والأصل أن يذكروا معه كما في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿تَنَزَّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا﴾[3].

فتبين مما تقدم تميزه ومكانته على غيره ويؤيد هذا ما جاء في غير ما موضع من كتاب الله المبين منها قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا

---

(١) سورة التحريم، الآية (٤).

(٢) سورة النبأ، الآية (٣٨).

(٣) سورة القدر، الآية (٤).

وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾[١].

ولا يخفى أن جبريل عليه السلام هو أمينه على وحيه ورسوله بينه سبحانه وبين أنبيائه من خلقه، وهو كبير ملائكته، كما أخرج أبو داود (٤٧٣٨)، وابن خزيمة في «التوحيد» (١/ ٣٥٠)، وابن حبان (٣٧) وغيرهم من طريق أبي معاوية، قال: حدثنا الأعمش، عن مسلم، عن مسروق، عن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء للسماء، صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل حتى إذا جاءهم جبريل فزع عن قلوبهم، قال: فيقولون: يا جبريل ماذا قال ربك؟ فيقول: الحق فيقولون: الحق الحق**».

وقد رجح الدارقطني والخطيب البغدادي وقفه[٢]، وهو ظاهر صنيع البخاري حيث علق مجزومًا به -قبل حديث (٧٤٨١)- عن ابن مسعود رضي الله عنه من قوله، لكن له حكم الرفع.

وفي هذا الخبر رجوع الملائكة إلى جبريل عليه السلام في هذا الأمر العظيم.

وقد جاء النص على هذا صراحة في خبر آخر، ولكنه لا يصح.

---

(١) سورة الحج، الآية (٧٥).

(٢) «العلل»: (٨٥٢)، «تاريخ بغداد»: (١١/ ٣٩٢).

وينظر: «الأسماء والصفات» للبيهقي (٤٣٤)، و«فتح الباري» تحت حديث (٧٤٨١).

أخرج ابن أبي عاصم (٥١٥)، وابن نصر في «تعظيم قدر الصلاة» (٢١٦)، وابن جرير (٢٠/ ٣٩٧)، وابن خزيمة (١/ ٣٤٨) وغيرهم، كلهم من طريق نعيم بن حماد، ثنا الوليد بن مسلم، عن عبدالرحمن بن يزيد بن جابر، عن عبدالله بن أبي زكريا، عن رجاء بن حيوة، عن النواس بن سمعان الكلابي، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا أراد الله أن يوحي بأمر تكلم بالوحي، فإذا تكلم أخذت السماوات منه رجفة من خوف الله ﷻ، فإذا سمع ذلك أهل السماوات، صعقوا وخروا سجدًا، فيكون أول من يرفع رأسه جبريل ؏، فيكلم الله من وحيه بما أراد، فينتهي به جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء قال أهلها: ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول جبريل: قال الحق، وهو العلي الكبير. قال: فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، حتى ينتهي بهم جبريل حيث أمره الله من السماء والأرض**»[(١)].

ومن المعلوم مكانه الرسل وعلو منزلتهم وجبريل أحدهم كما تقدم،

---

(١) قال أبو زرعة الدمشقي بعد أن رواه: عرضت هذا الحديث على دحيم فقال: لا أصل له.
ينظر: «تاريخ أبي زرعة الدمشقي» (١/ ١٦١).
وعد المزي في «التهذيب» (٩/ ١٥٢)، رواية رجاء بن حيوة، عن النَّواس إنما هي من وجهٍ ضعيف.
ونص المعلمي على أنه منكر سندًا، لا متنًا.
ينظر: «التنكيل» ترجمة (٢٥٨) حديث رقم (٣).

والأدلة على ذلك كثيرة من الكتاب والسنة.

كما أن هذه الآية فيها تقديم صالح المؤمنين على بقية الملائكة ففيها دليل لمن يقول بتفضيل صالح المؤمنين على الملائكة والخلاف في هذه المسألة معلوم.

**تنبيه:**

بعض الناس يقول عن رسول الله ﷺ بأنه أفضل الخلق، والذي ثبت في السنة قوله ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم** ...» أخرجه مسلم (٢٢٧٨) من طريق أبي عمار، قال: حدثني عبدالله بن فروخ، حدثني أبو هريرة رضي الله عنه فذكره، فرسول الله ﷺ لا شك أنه أفضل البشر، وأما كونه أفضل الخلق فهذا لم يأتي النص عليه، والله تعالى أعلم.

والله عز وجل عندما يذكر في كتابه العظيم «إسماعيل» و«إسحاق» في آية واحدة، فإنه يبدأ بذكر إسماعيل أولًا، وقد استُفيد من هذا أمران:

**الأول**: أن إسماعيل هو الأكبر، ويدل على ذلك أن الله عز وجل غالبًا يذكر قصة نوح بعد آدم، وأنه عندما يذكر أولي العزم يبدأ بنوح، وذلك لتقدمه عليهم من حيث الزمان، ولذا فإن القول المجزوم به أن إدريس بعد نوح، وليس العكس، حتى قيل أن إدريس من آباء نوح، كما ذهب إلى هذا جمع من أهل العلم، وهو قول أهل الكتاب، والصواب خلاف ذلك لبضعة عشر دليل

ذكرتها في غير هذا الموضع(١).

وأيضًا فإنه سبحانه عندما يذكر هودًا يذكر بعده صالح، ولا يقدم صالحًا عليه، وذلك لتقدمه زمنًا، ويعقوب يُذكر بعد إسحاق، ولهذا نظائر، ويؤكد ذلك ما في سورة الصافات في قوله تعالى: ﴿ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ (١٠٢)﴾ إلى أن قال: ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ (١٠٦) وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ (١٠٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ (١٠٩) كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١١٢) وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ (١١٣)﴾(٢).

والشاهد من هذا أن الله ﷻ بعد أن ذكر قصة الذبح قال سبحانه: ﴿ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ ﴾؛ فدل هذا على أن الذي تقدم ذكره ليس بإسحاق، فيكون هو إسماعيل(٣).

---

(١) انظر: «رسالة الأدلة الصائبة على تقدم نوح على إدريس».

(٢) سورة الصافات، الآيات (١٠١-١١٣).

(٣) ينظر: «الزهد» لابن أبي عاصم (٣٩١)، «تفسير ابن جرير»: (٨٦/٢١)، «أخبار مكة»

**الثاني**: أن إسماعيل أفضل من إسحاق، ويدل على هذا أنه سبحانه لم يذكر موسى وهارون إلا ويقدم موسى، وذلك لأنه هو الأفضل، إلا في موضع واحد في القرآن، مع أن هارون أكبر سنًّا من موسى عليه السلام.

أخرج ابن أبي حاتم في تفسيره (١٤٢٠٦) عن ابن عباس، في قوله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾[1]، قال: «كان هارون أكبر من موسى، ولكن إنما وهب له نبوته».

وقال في موضع آخر (١٦٦٧٤): حدثنا علي بن الحسين، ثنا محمد بن عيسى، ثنا سلمة، عن ابن إسحاق، عن عبدالله بن أبي نجيح، عن مجاهد قال: «لقد ذكر لي أنه كان ليأمر بالقصب فيشق حتى يجعل أمثال الشفار، ثم يصف بعضه إلى بعض، ثم يؤتى بحبالى من بني إسرائيل، فيوقفن عليه، فيجز أقدامهن، حتى إن المرأة منهن لتمصع بولدها فيقع بين رجليها، فتظل تطؤه

---

(٥/ ١٢٦)، «الذخيرة»: (٤/ ١٦٠)، «مجموع الفتاوى»: (٤/ ٣٣١)، «منهاج السنة»: (٥/ ٣٥٣)، «الرد على المنطقيين»: (٥١٧)، «مختصر الفتاوى المصرية»: (٥٢٣)، «فتاوى السبكي»: (١٠٢)، «زاد المعاد»: (١/ ٧١)، «إغاثة اللهفان»: (٢/ ٣٥٤)، «تفسير ابن كثير»: (٧/ ٣٢)، «فتح الباري»: (٢/ ٣٧٨)، «الفروع»: (٦/ ٢٨٨)، «الإنصاف»: (١٠/ ٤١٠)، «كتاب الرأي الصحيح فيمن هو الذبيح» وهو كتاب قيم، وقد استوفى أدلة القول الراجح.

(١) سورة مريم، الآية (٥٣).

وتتقي به حد القصب عن رجليها لما بلغ من جهدها، حتى أسرف في ذلك وكاد يفنيهم، فقيل له: أفنيت الناس وقطعت النسل، وإنما هو خولك وعمالك فتأمر بأن يقتل الغلمان عامًا، ويستحيوا عامًا فولد هارون ﷺ في السنة التي يستحي فيها الغلمان، وولد موسى ﷺ في السنة التي فيها يذبحون وكان هارون أكبر منه بسنة».

وقال ابن جرير (١٨/٢١١): حدثني يعقوب، قال: ثنا ابن علية، عن داود، عن عكرمة، قال: قال ابن عباس: قوله ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾، قال: «كان هارون أكبر من موسى، ولكن أراد وهب له نبوّته»[1].

**ومن أمثلة تدبر القرآن أيضًا ما يتعلق بذي القرنين، هل هو نبي أو رجل صالح؟**

على قولين لأهل العلم، وظاهر القرآن العظيم يدل على أنه نبي، وذلك في موضعين:

**الموضع الأول:** قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾[2].

**وجه الاستدلال في الآية من جهتين:**

(١) ينظر: تفسير القرطبي (١١/١٩٣)، وغيره.

(٢) سورة الكهف، الآيات (٨٦ – ٨٨).

**الجهة الأول:** قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ وهذا وحي، لأن الله ﷻ أوحى إليه، فقال له: ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ ..﴾، ولا يخفى أن الله ﷻ إذا أوحى إلى شخص فهذا دليل على نبوته، ويؤيد هذا أن الله ﷻ قد خيره بتعذيب هؤلاء أو بتركهم، وظاهر هذا أنه قد أوحي إليه بشرع، والشرع لا يكون إلا للنبي أو الرسول.

**الجهة الثانية:** ظاهر التخيير أنه شرع.

**الموضع الثاني:** قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾[1].

**وجه الدلالة:** أن ذي القرنين أخبر عن شيء يقع في المستقبل، وهو أن من خلف هذا السد لا يستطيعون على الخروج منه بنقبه حتى يأتي الموعد الذي حدده الله تعالى، وهذا الأمر الغيبي لا يكون إلا بوحي؛ لأنه لم يقل مثلًا: «أرجو أن لا يستطيعوا نقبه»، أو «لعل»، وإنما جزم ببقاء هذا السد حتى يأتي موعود الله.

**الموضع الثالث:** ما أعطاه الله تعالى من القدرات، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾﴾[2]، ثم لم يقتصر على هذا الأمر فقط بالنسبة لذي

---

(١) سورة الكهف، الآيتان (٩٧ – ٩٨).

(٢) سورة الكهف، الآية (٨٤).

القرنين، بل يضاف إلى ذلك إقدار الله تعالى له على بناء هذا السد العظيم، وتسليط الله له على من كان في شرق الأرض وغربها بدعوتهم إلى الله ﷻ.

وقد يقول قائل: إن بلقيس أوتيت من كل شيء، ولم يقل أحد أنها نبيه**!**

فأقول وبالله التوفيق: إن الله تعالى قال عن بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتۡ﴾(١) بصيغة المبني للمجهول، بخلاف ذي القرنين، فإن الله أسند هذا لنفسه، والله أعلم.

وقد قال القرطبي في «تفسيره» (١١/ ٥٢): «قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا يَٰذَا ٱلۡقَرۡنَيۡنِ﴾، قال القشيري أبو نصر: إن كان نبيًا فهو وحي، وإن لم يكن نبيًا فهو إلهام من الله تعالى».

**قلت**: والصواب أنه وحي لأن هذا هو نص القرآن، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلۡنَا﴾، ثم من المعلوم أنه لا يجوز للإنسان أن يقتل بمجرد إلهام، لأنه ما الذي يدريه لعل هذا أن يكون إلهامًا من الشيطان**!**.

ثم قال أبو عبدالله القرطبي: «﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا ٨٦﴾، قال إبراهيم ابن السري: خيره بين هذين كما خير محمدًا ﷺ؛ فقال: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ﴾(٢) ونحوه.

---

(١) سورة النمل، الآية (٢٣).

(٢) سورة المائدة، الآية (٤٢).

وقال أبو إسحاق الزجاج: المعنى أن الله تعالى خيره بين هذين الحكمين.

قال النحاس: وردّ علي بن سليمان عليه قوله، لأنه لم يصح أن ذا القرنين نبي فيخاطب بهذا، فكيف يقول لربه ﷻ: ﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾؟ وكيف يقول: ﴿فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ فيخاطب بالنون؟

قال: التقدير، قلنا يا محمد قالوا يا ذا القرنين».

**قلت**: وهذا تأويل وخروج عن ظاهر النص فلا يلتفت إليه.

قال القرطبي: «أما قوله: ﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾؛ فيجوز أن يكون الله ﷻ خاطبه على لسان نبي في وقته، ويجوز أن يكون قال له هذا كما قال لنبيه: ﴿**فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً**﴾(١)».

**قلت**: والثاني هو الصحيح كما تقدم، لأن نص القرآن هو أنه خاطبه مباشرة، فقال تعالى: ﴿قُلْنَا﴾.

**وقد يقول قائل**: هناك من أوحى الله ﷻ إليهم ومع ذلك فهم ليسوا بأنبياء، بل إن هناك من نزل عليهم جبريل وهم ليسوا بأنبياء، فما الجواب عن هذا؟

فأقول وبالله تعالى التوفيق: أما الأول فالمقصود به أم موسى ﵇، وذلك

---

(١) سورة محمد، الآية (٤).

بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾[(١)].

**فالجواب عن ذلك**: أنه قد نُقل الإجماع على أن الأنبياء لا يكونون إلا رجالًا كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾[(٢)]، ولم يخالف في ذلك إلا قلة كأبي محمد ابن حزم، وقد أخطأ[(٣)].

---

(١) سورة القصص، الآية (٧).

(٢) سورة يوسف، الآية (١٠٩).

(٣) حيث ذهب أبو بكر التجيبي القبري -جد الباجي- وأبو محمد ابن حزم و أبو العباس وأبو عبدالله القرطبيان إلى وقوع النبوة في جنس النساء، ولم يختلفوا في نبوة مريم، ومنهم من حصرهن في ست: حواء، وسارة، وهاجر، وأم موسى، وآسية، ومريم، ومنهم من أخرج سارة وهاجر.

وهذا قول ضعيف، وقد ذكر النووي في «الأذكار» (١١٩) عن أبي المعالي الجويني أنَّه نقل الإجماع على أنَّ مريم ليست نبية.

وبعضهم نسبه إلى أبي الحسن الأشعري، ولا أظنه يثبت عنه، إذ قال أبو العباس ابن تيمية في «الصفدية» (١/ ١٩٨): «وقد حكى الإجماع على أنه لم يكن في النساء نبية غير واحد كالقاضي أبي بكر بن الطيب والقاضي أبي يعلى وأبي المعالي الجويني وخلاف ابن حزم شاذ مسبوق بالإجماع فإن دعواه أن أم موسى كانت نبية هي ومريم قول لا يعرف عن أحد من السلف والأئمة».

وذكر تلميذه العماد ابن كثير في «تفسيره» (...... /...)*: «والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبيًّا إلا من الرَّجال قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ

**ثانيًا**: أن هذا الوحي لأم موسى إنما هو في أمر خاص، وذلك في إلقاء موسى عليه السلام في اليم، بخلاف ما حصل لذي القرنين فهو في أمر عام، وبهذا يجاب أيضًا عن الذي حصل لمريم، فإن جبريل إنما نزل عليها لأمر يختص بها، وبالله التوفيق.

❁❁❁

---

أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ [سورة يوسف: ١٠٩]. وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله الإجماع على ذلك».

وقال أيضًا (٤/ ٤٢٣): «الذي عليه أئمة أهل السنة والجماعة، وهو الذي نقله الشيخ أبو الحسن علي ابن إسماعيل الأشعري عنهم: أنه ليس في النساء نبيةٌ، وإنما فيهن صدِّيقاتٌ».

وجاء في «تفسير ابن أبي زمنين» (٢/ ٣٤٢)، و«التفسير البسيط» (٦٣٨/٢) عن الحسن البصري: «لم يبعث الله من نبيًا من أهل البادية.

ينظر: أحكام القرآن للجصاص (٢/ ٢٩٣)، الوجيز للواحدي (١/ ٥٦٢)، النكت والعيون (٨٨/٣)، المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم (٦/ ٣١٥)، الفصل في الملل والنحل (٥/ ١٢)، المحرر الوجيز (١/ ٤٣٤)، الجامع لأحكام القرآن (٤/ ٨٢)، مجموع الفتاوى (٤/ ٣٩٥)، التسهيل لعلوم التنزيل (٣٩٧/١)، أنوار التنزيل (١٦/٢)، البحر المحيط (٤٥٦/٢)، تفسير ابن كثير (١٥٨/٣)، فتح الباري (٤٤٦/٦)، اللباب في علوم الكتاب (٥/ ٢١٤)، إرشاد العقل السليم (٢/ ٣٥)، لوامع الأنوار البهية (٢/ ٢٦٦)، فيص القدير (٢/ ٥٣)، فتح القدير (٣/ ٨٢)، التحرير والتنوير (١٧/ ١٣٧).

## فصل
## في كتب التفسير التي يستعان بها على تدبر القران الكريم

من أحسن كتب التفسير التي تعين على ذلك «تفسير محمد بن جرير الطبري».

قال الإمام أبو العباس ابن تيمية: «وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها «تفسير محمد ابن جرير الطبري»، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة، وليس فيه بدعة ولا ينقل عن المتهمين مقاتل بن بكير والكلبي»[(١)].

وهذا الذي ذكره يكاد يكون محل اتفاق بين أهل العلم إلا ما جاء عن أبي محمد ابن حزم فقد قدم «تفسير بقي بن مخلد» على ابن جرير، فقال: «وفي تفسير القرآن كتاب أبي عبدالرحمن بقي ابن مخلد فهو الكتاب الذي أقطع قطعًا لا أستثني فيه أنه لم يؤلف في الإسلام تفسير مثله ولا تفسير محمد بن جرير الطبري ولا غيره»[(٢)].

**قلت:** قد قال هذا أيضًا في تقديم مسند بقي على غيره، فقال: «ومنها في الحديث مصنفه الكبير الذي رتبه على أسماء الصحابة رضي الله تعالى عنهم

---

(١) «مجموع الفتاوى»: (٥/ ٨٤).

(٢) «فضائل الأندلس وأهلها»: (١/ ١٢).

فروى فيه ألف وثلاث مئة صاحب ونيف ثم رتب حديث كل صاحب على أسماء الفقه وأبواب الأحكام فهو مصنف ومسند.

وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث وجوده شيوخه فإنه روى عن مائتي رجل وأربعة وثمانين رجلًا ليس فيهم عشرة ضعفاء وسائرهم أعلام مشاهير»[١].

وقال هذا أيضًا في تقديم مصنف بقي على غيره، فقال: «ومنها مصنفه في فضل الصحابة والتابعين ومن دونهم الذي أربى فيه على مصنف أبي بكر بن أبي شيبة ومصنف عبدالرزاق ابن همام ومصنف سعيد بن منصور وغيرها.

وانتظم علمًا عظيمًا لم يقع في شيء من هذه فصارت تأليف هذا الإمام الفاضل قواعد الإسلام لا نظير لها وكان متخيرًا لا يقلد أحدًا»[٢].

**قلت**: وهذا فيه نظر أما ما يتعلق بمسند بقي فقد قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (..../......): «وقد فضله ابن حزم على مسند الإمام أحمد وفي ذلك نظر، والظاهر أن مسند أحمد أجود منه، وأجمع».

**قلت**: وأنا أذهب إلى هذا وقد تكلمت بشيء من التفصيل على ذلك في

---

(١) «فضائل الأندلس وأهلها»: (١/ ١٣).

(٢) «فضائل الأندلس وأهلها»: (١/ ١٣).

مقدمة «الأربعين الثلاثية» من المسند(١).

قال أبو الحسن ابن عساكر: «فكان أكبر الكتب التي جمعت فيه مما وقع إلينا وأعلاها سندًا إلى مصنفه مما حصل لدينا مسند أبي عبدالله أحمد بن حنبل رحمه الله...»(٢).

وأما تقديمه لمصنفه في «فضائل الصحابة» على «مصنف أبي بكر بن أبي شيبة»، و«مصنف عبدالرزاق بن همام»، و«مصنف سعيد بن منصور»، فهذا فيه نظر أيضًا، وإن لم أقف على كتاب بقي.

والدليل على ذلك أن أبا محمد بن حزم لم يعتمد في كتابه «المحلى»، ولا غيره على ما وصل إلينا على كتب بقي، وإنما في الغالب يعتمد على كتاب البخاري ومسلم والنسائي، ومثله أبو عمر ابن عبدالبر فأين كتب بقي التي أربت على غيرها؟

وما قيل هنا: يقال أيضًا في تقديمه تفسير بقي على تفسير ابن جرير، ولولا أن ابن حزم ذكره -أي تفسير بقي- لما عُلم أصلًا أن بقي له تفسير، وذلك لعدم النقل عنه، واستفادة الأمة منه وعلى رأسهم ابن حزم، والذي يظهر والله أعلم أن تفسير ابن جرير يقدم عليه، ولعل ابن حزم يقصد بالتقديم قوة

(١) مقدمة «الأربعين الثلاثية»: (٦٣).

(٢) «ترتيب أسماء الصحابة الذين أخرج حديثهم أحمد في المسند»: (٢٩).

أسانيده وأنها راجحة على أسانيد ابن جرير وهذا ممكن، ولكن تبقى هذه جزئية، فالخصائص التي تميز بها تفسير ابن جرير كثيرة، والله تعالى أعلم.

وبناء على ما تقدم يحسن الرجوع إلى هذا التفسير في تدبر كلام الله، ومعرفة معانيه، ولكن هناك بعض العوائق التي قد تُصعب الرجوع إليه منها كبر حجمه[١].

ومنها ما ذكره الأستاذ محمود شاكر رحمه الله في مقدمة تحقيقه (١/ ١١) بقوله: «كان يستوقفني في القراءةِ، كثرةُ الفُصُول في عبارته، وتباعُد أطراف الجُمَل.

فلا يسلم لي المعنى حتى أعيد قراءة الفقرة منه مرتين أو ثلاثًا.

وكان سبب ذلك أنّنا ألفنَا نهجًا من العبارة غيرَ الذي انتهج أبو جعفر، ولكن تبيَّن لي أيضًا أن قليلًا من الترقيم في الكتابِ، خليقٌ أن يجعَل عبارته أبينَ.

فلما فعلتُ ذلك في أنحاءٍ متفرقة من نسختي، وعدتُ بعدُ إلى قراءتِها،

---

(١) مع أن المصنف قد اختصره، حيث أن أبا جعفر الطبري قال لأصحابه: هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا؟ قالوا: كم قدره؟ فذكر نحو ثلاثين ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه!

فقال: إنا لله! ماتت الهمم، فاختصر ذلك في نحو ثلاثة آلاف ورقة، ولما أن أراد أن يملي التفسير قال لهم نحوًا من ذلك، ثم أملاه على نحو من قدر. «التاريخ».

ينظر: «سير أعلام النبلاء»: (١٢/ ٢٧٤).

وجدتُها قد ذهب عنها ما كنت أجد من المشقّة».

**قلت**: وهذا ما جعل جمع من أهل العلم في القديم والحديث إلى محاولة اختصار هذا التفسير لتقريبه للناس ومنهم الابن: إسلام بن عبدالحميد منصور، فقام باختصاره وذلك بتجريد التفسير من كل ما فيه سوى كلام ابن جرير وضم بعضه إلى البعض الآخر مع المحافظة على عبارته ولفظه.

ولعله بصنيعهِ هذا يكون من أحسن من اختصر هذا الكتاب فجزاه الله خيرًا وبارك فيه ونفع به الإسلام والمسلمين، وبالله التوفيق.

كتب:

عبدالله بن عبدالرحمن السعد

١٠/٤/١٤٣٧هـ